

مجلة أنثروبولوجية (الأويان) المجلد 16 (العدد 01) بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

النص الأدبي بين المحافظة على الهوية وتبني ثقافة الآخر
الكتابات الروائية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية أنموذجا

**Literary text between preserving identity and adopting the
other's culture Algerian Novels written in French as a model**

سعيد منال وسام¹

Saidi Manel Wissem

جامعة تلمسان

Tlemcen University

saidi-manel@hotmail.com

تاريخ القبول: 2019/07/25م

تاريخ الارسال: 2019/07/17م

الملخص:

ارتبط الإبداع الأدبي باللغة فكانت وسيلة التعبير عن ما يختلج الصدر وما يدور في الذهن. فمن المبدعين من كتب بلغته الأم، ومنهم من كتب بلغة الآخر تعبيرا عن أفكاره ومكونات فؤاده، وذلك لأسباب ثقافية ومعرفية وسياسية. ومن هذا المنطلق، نسعى إلى مساءلة الاختلاف اللغوي في عملية الإبداع من حيث التفاعل الإيجابي أو السلبي مع هوية الانتماء الثقافي والحضاري والعائدي والإيديولوجي لكاتب النص

الكلمات المفتاحية: الهوية، ثقافة، الآخر، الإبداع، النص

¹ المؤلف المرسل سعيد منال وسام saidi-manel@hotmail.com

Abstract:

Literary creativity was associated with the language, which was the mean of expressing what is going on in the chest and what is going on in the mind. For the sake of cultural, cognitive and political reasons, we seek to question linguistic differences in the process of creativity in terms of positive or negative interaction with the identity of the cultural, civilizational, ideological and ideological affiliation of a writer.

Keywords : the identity, the other , culture, creativity , text.

مقدمة:

ارتبط الإبداع الأدبي باللغة فكانت وسيلة التعبير عن ما يختلج الصدر وما يدور في الذهن. فمن المبدعين من كتب بلغته الأم، ومنهم من كتب بلغة الآخر تعبيرا عن أفكاره ومكونات فؤاده، وذلك لأسباب ثقافية ومعرفية وسياسية. ومن هذا المنطلق، نسعى إلى مساءلة الاختلاف اللغوي في عملية الإبداع من حيث التفاعل الإيجابي أو السلبي مع هوية الانتماء الثقافي والحضاري والعائدي والإيديولوجي لكاتب النص. طرح هذا التفاعل إشكاليات لغوية عديدة مرتبطة ارتباطا عضويا بلغة النص حيث ضغطت علينا مجموعة من التفاعلات ولعل أهمها:

- هل للغة الكتابة آثار وتأثير على هوية المبدع؟

- بعبارة أخرى: إلى أي مدى يعكس النص هوية كاتبه؟

- هل حافظ المبدعون على هويتهم الثقافية في كتاباتهم بلغة أجنبية؟ أي هل هناك فرق بين الكتابة بلغة الأم وبين الكتابة بلغة أجنبية من حيث هوية الانتماء؟ وفي الأخير: هل يحافظ النص على هوية صاحبه؟

إنّ مساءلة تلك العلاقة الممكنة بين اللغة والهوية عبر النص الأدبي يفرض علينا مجموعة من الاتجاهات المرتبطة بدورها بمجموعة من التساؤلات ولعل أهمها:

- إلى أي مدى تشكل اللغة عنصرا أساسيا وثابتا في تحديد الهوية؟

- هل الكتابة باللغة الأصلية ضمان لشرعية انتماء الكاتب إلى هويته الأصلية؟

- هل الكتابة بلغة أجنبية يصاحبها فقدان الكاتب لهويته الأصلية.

العرض والتحليل:

للإجابة عن هذه التساؤلات، اخترنا لأنفسنا حقلا أدبيا أثار جدلا كبيرا عند المثقفين والأدباء والنقاد والذي اصطلح على تسميته بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية "la littérature algérienne d'expression française" وهو إنتاج أدبي تفتن فيه عدد من الأدباء الجزائريين والذين اختاروا لأسباب مختلفة الكتابة باللغة الفرنسية، نذكر في هذا الصدد على سبيل المثال: محمد ديب، مولود فرعون، مولود معمري، كاتب ياسين، رشيد بوجدر، باسمينة خضرة، نبيل فرس، رشيد ميموني، مالك حداد، آسيا جبار... الخ. فهؤلاء الأدباء قد برزوا بشكل ملفت للنظر في مجال الرواية حيث وصل صيتهم ومستواهم الإبداعي إلى العالمية. وفي هذا الصدد يضغط علينا السؤال التالي:

- هل وصولهم إلى العالمية وتميزهم كمبدعين من الطراز العالي والعالمي تعود أسبابه إلى جودة الكتابة وإلى قوة الإبداع، أم أنّ أسباب بروزهم تعود أصلا إلى لغة الكتابة أي اللغة الفرنسية؟

- وسواء كان جوابنا بالنفي أم بالإثبات، فإنّ الشيء الحقيقي والثابت والمعترف به أنّ هؤلاء الروائيين تميزوا على المستوى العالمي بعبقريتهما الإبداعية وأنّ أعمالهم لم تبقى حبيسة اللغة الفرنسية، فقد ترجمت إلى لغات أجنبية عديدة مثل: الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والألمانية والروسية.

والمعروف أنّنا "كثيرا ما نقف من المسائل اللغوية موقفا عاطفيا ظنا أنّ أيّ تساؤل ينمّ عنه نيات خبيثة عن مؤامرة مبيتة ضدّ الرباط الوحيد الذي ما زال يجمع بين عرب اليوم. لهذا الموقف مبررات كثيرة ترجع إلى تجربة الاستعمار الذي حاول جادا أن يقصي اللسان العربي من حقل الحياة العامة باعتبار أنّه وعاء الوجدان القومي" (عبد الله العروي، 2002، 223)⁽ⁱ⁾.

لذلك فإنّ الكتابة باللغة الفرنسية وعلاقتها بالهوية الوطنية قد أحسنّ بجمرتها هؤلاء الكتاب منذ أيام الاستعمار، فبالإضافة إلى تكوينهم العلمي والبيداغوجي في المدارس الفرنسية قبل الاستقلال حيث لم يكن لهم حرية الاختيار في لغة التكوين، لقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تعلم اللغة الفرنسية والتي كانت

في ذلك الوقت تسمى مجازا لغة الاستعمار، غير أنّ هذا لم يمنعهم من المشاركة في المقاومة والجهاد والثورة والحرب من أجل استقلال الجزائر وطرد الاستعمار الفرنسي، لقد ناضلوا بأقلامهم وبكتاباتهم وحاربوا العدو بلغته، " لأنّ الغاية القصوى للغة هي الإفصاح عن كل ما يخطر بالبال ويخالف الضمير إفصاحا تاما بأعظم ما يمكن من الوضوح والتأثير وبأقل ما يمكن من الجهد والعناء... فدرجة الغنى في اللغة يجب أن تقدر وتقاس بدرجة اقترابها من هذه الغاية ولا مجال للإنكار أنّ اللغة العربية بعيدة عن الغنى بهذا الاعتبار، ولكنّها إن كانت فقيرة إلى المصطلحات اللازمة لا تزال غنية بالقابليات الكامنة... وهكذا فإنّ اللغة العربية لغة متطورة وحية، قابلة للنمو والازدياد، بل ومقاومة لكل الأخطار التي تتهدّدها من أعدائها الأجانب، ومن أبنائها العاقين، وليس لدينا أدنى شكّ بأنّها ستتجاوز كل مشاكلها وتتغلب عليها الواحدة تلو الأخرى لتصبح لغة العلم كما هي لغة الأدب ولغة الشارع" (الصادق خشاب، 283، 2010) (ii).

لم يكن للكتاب الجزائريين خيار غير اللغة الفرنسية للكتابة ولكن رغم ذلك فقد كان جهادهم جهادا عالميا تعدّى الحدود الوطنية، فلقد تبنوا اللغة الفرنسية سلاحا عالميا من أجل إخراج القضية إلى العالمية والتعريف بها على مستوى أعمّ وأشمل باعتبار أنّ اللغة الفرنسية أكثر حضورا في المحافل الدولية.

لقد تبنوا اللغة الفرنسية سلاحا قويا من أجل المقاومة والدفاع على الوطن وعن الهوية خاصة وأنّه " لم يعاني بلد من جوارنا العربي القريب أو البعيد ذلك القدر من الغبن والقهر، فقد احتفظت كلّها بوجود شكلي للدولة، والمؤسسات التقليدية الخاصة بالتعليم والدين، أمّا بالنسبة للجزائر فقد كان تعلم وتعليم العربية في تلك الأيام الحالكة أشبه بحرب العصابات ورجاله كانوا أقرب إلى الفدائيين والمسلحين، غذّاهم الشعب وآواهم وحماهم، لقد كانوا على يقين بأنّهم يمارسون الوطنية ويعتزون بشخصيتهم واتمائهم الحضاري إذ لا أمل لهم في الحصول على موقع في إدارة الاحتلال الذي لا يحتاج لغير التراجمة والخدم (محمد عابد الجابري، 186، 1999) (iii). ومن هذا المنطلق، نقول أنّ تبني اللغة الأجنبية ليس دائما منافيا للهوية، فقد ندافع على هويتنا العربية بلغة أجنبية وهذا ما لمسناه في كتابات محمد الديب في ثلاثيته الشهيرة : La grande maison، L'incendie، Le métier à tisser، فهي أعمال روائية استطاع من خلالها محمد الديب أن يصوّر آمال وأحلام الشعب الجزائري وهو يناضل من أجل الحرية والاستقلال، لقد استطاع محمد ديب بأعماله هذه أن ينقل القضية الجزائرية إلى كل قراء اللغة الفرنسية سواء في داخل

الوطن أو في خارجه بداية من فرنسا وإلى كل الشعوب والأقطار التي تتحدث باللغة الفرنسية، ومن مقولاته في هذا الصدد: " إن كل قوى الخلق والإبداع لكتابنا وفنانينا ، بوقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين ، تجعل من الثقافة ، سلاحا من أسلحة المعركة . ولأسباب عديدة ، فإنني ككاتب ، كان همي الأول ، هو أن أضرم صوتي إلى صوت المجموع ، منذ أول قصة كتبتها "عزالدين المناصرة، 2013، 369، (iv).

والأمر نفسه في أعمال مولود فرعون صاحب الروائع الروائية الشهيرة: الأرض والدم *la terre et le sang*، وابن الفقير *Le fils du pauvre* ، الذي قال ذات يوم : " لا يجب أن نبكي أو نشعر بالضيق ، لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فإنني لا أشعر بأي عقدة نقص. الكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها ، إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره ، ويبدل مجهودا كبيرا في سبيل التوصل الى الشكل الذي يريده أو يرغب أن يظهر به ، عمله الجديد ، إنني أقول أن فرصة (الكتابة بالفرنسية) ، ثروة للثقافة الجزائرية (عز الدين المناصرة ، 2013 : 370) " (v).

كما لا ننسى العمل الرائع والذي أثار ضجة نقدية سواء بشكله الأدبي الخاص والمميز أو بمضمونه الثوري والذي صوّره كاتب ياسين في رائعته نجمة. إذن لقد تبني هؤلاء الروائيون اللغة الفرنسية سلاحا قويا وعلامة دالة على انتمائهم إلى الجزائر ثقافة وهوية ووطن وتاريخ وشعب.

غير أنّ هذه المعادلة ليست دائما ثابتة ، أي التعبير عن الهوية الوطنية بلغة أجنبية وفق أسس سليمة ووطنية وثورية حيث أننا قد نجد من الأدباء الذين اختاروا الكتابة باللغة الفرنسية للتعبير عن موقف معادي للغة العربية وللهوية العربية الإسلامية ، فاختيارهم هذا هو اختيار إيديولوجي مقصود، وقد ارتقوا بطريقة شعورية أو لاشعورية في أحضان الاتجاه الفرانكفوني، وهو اتجاه تعدى المسألة اللغوية إلى مسألة أخرى أكثر خطورة طبعتها عصبية وعدوانية شديدة ضد الهوية العربية الإسلامية وحتى ضدّ الجزائر كوطن وكشعب وثقافة وحضارة وتاريخ وانتماء حيث أنّه " تطورت وسائل الاتصال والتخاطب والتبليغ، فإنّ اللغة - أية لغة - ستبقى العلامة الأكثر ظهورا وتمييزا للكيانات الثقافية ومهما أتقن الشخص من السنة وتبحر في ثغرات كل منها فإنّ علماء النفس الاجتماعي واللغوي يرجحون أنّ واحدا فقط من قواميسه اللغوية يكون أكثر تأثيرا على آليات التفكير وقوالب التعبير (محمد عابد الجابري ، 1999 : 7) " (vi).

وأمام هذه الجدلية المتناقضة والتي تنبأها عدد من المفكرين الجزائريين الذين تنكروا لهويتهم ولانتماءاتهم حيث اختاروا اللغة الفرنسية وسيلة تعبيرية ووطنا جديدا لهم معاديا لوطنهم الأصلي.

وقد تقودنا هذه الإشكالية الخاصة بعلاقة اللغة والهوية إلى إثارة مسألة الكتابة باللغة العربية في حد ذاتها عبر السؤال الجوهرى التالي:

هل الكتابة باللغة العربية ضمان أكيد لحماية وصيانة الهوية ؟

وإجابة عن هذا السؤال نقول كم من عمل إبداعي عربي اللغة لم يكن في يوم من الأيام بريئا من حيث الانتماء، فهو محمل بقيم مناهضة للهوية وللوطن وللشعب ولتاريخه، فهي أعمال محملة بعداء كبير للهوية العربية الإسلامية، مليئة بقيم مستمدة من سياقات فكرية وإيديولوجية ليس لها علاقة مع الطابع الوطني العربي الإسلامي، علما انه في فترة الاستعمار أكثر ما كنا في حاجة إليه هو أدب يوحدنا خاصة وان "أهم العناصر الثقافية في معركة الاستلاب الاستعماري - إذا كانت المجابهة يومها ثقافية - قبل كل شيء فهناك دين يعارض دين ولغة تكافح لغة وحضارة تنافح حضارة" (إصدار الجامعة التونسية ، 1978: 359) " (vii)

ونذكر على سبيل المثال ذلك الاتجاه الذي ساد الكتابات الروائية الجزائرية ذات النزعات الماركسية والشيوعية والتي وقفت متحدية الهوية الحضارية والتاريخية والدينية للشعب الجزائري.

والحديث عن إشكالية اللغة والهوية في النص الأدبي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يقودنا إلى ضرورة صناعة تعريف للهوية والتي يعرفها الأستاذ عز الدين المناصرة: "هي ما يميز الشخص عن غيره، وهي هوية فردية، أما ما يميز الجماعة عن الجماعات الأخرى فهو هوية جماعية، بينما ما يميز الوطن أو الأمة عن غيرها من الأوطان والقومية فهي هوية وطنية أو قومية، ويمكن القول أنّ الهوية تعبر عن خاصية مطابقة الشيء لنفسه أو لمثليه وتعني الهوية في المعاجم الحديثة حقيقة الشيء أو هوية الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات. فالهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهر المشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة أمة عن غيرها من الحضارات والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى،

وما دامت الهوية مرتبطة بالشخصية الفردية أو الجماعية أو الوطنية فإنّ محوها يعني محو الشخصية (عز الدين المناصرة، 2004: 35) (viii).

نشير إلى أنّ مصطلح الهوية مصطلح زئبقي شأنه شأن مصطلح الثقافة. فلقد تعددت تعريفات الهوية واختلفت وذلك يعود أصلا إلى العناصر البنوية المكونة لها، حيث أنّ كل باحث بنى تعريفه للهوية بناء على عنصر أو عناصر تبدو له ثابتة وأساسية في تحديد الهوية وفي تحديد ماهيتها ووظيفتها، ولعلّ أهمّ العناصر التي اعتمدها الباحثون في تحديد مفهوم الهوية نذكر اللغة والدين والتاريخ والحضارة والوطن واللون والاقتصاد والثقافة والشخصية، فمنهم من يقول: "الهوية هي اللغة"، ومنهم من يقول: "الهوية هي الثقافة"، ومنهم من يقول "الهوية هي الوطن"، ومنهم من يقول "الهوية هي الشخصية"، ومنهم من كانت له نظرة عامة وشاملة وعرف الهوية بذلك الوعاء الذي يشمل اللغة والدين والثقافة والوطن والتاريخ والحضارة، ومهما يكن من أمر، فإنّ الأمر الغالب في هذه التعريفات والتي تكاد تتفق على أنّ الهوية هي ذلك المعطى الثقافي والنفسي والاجتماعي والحضاري والديني والإيديولوجي والجغرافي الجماعي أو الفردي والذي يكسبه صاحبه خصوصيات ومميزات مادية ومعنوية وسلوكية تميزه عن غيره.

وفي الأخير، نقول أنّه جدل عقيم أن نربط الهوية باللغة وحدها، فتصبح بذلك اللغة مرآة عاكسة للهوية في حين اللغة ما هي إلّا وسيلة اتصال وتخطب أيا كانت، خاصة وأنّنا نعيش صراعا بين لغتين وهما "العربية الفصحى والفرنسية"، وكلاهما ليس اللغة الأم لأي شخص، نعيشهما عن وعي أو غير وعي باعتبارهما لغتان أجنبيّتان، ظهرت الفصحى مع انتشار الإسلام في الجزائر، وظهرت الفرنسية بعد الاستعمار، الأولى (العربية) مقدسة، والثانية دنيوية (سليمان بن عيسى، 2002: 12) (ix).

الخاتمة:

وخلاصة القول: إنّ علاقة الهوية باللغة تبقى دائما مجال جدل كبير وذلك يعود سببه أصلا إلى مفهوم الهوية في حدّ ذاتها ووظيفة اللغة، فالمسألة تختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن شعب إلى آخر. كما نجد في بعض الفضاءات أنّ اللغة تشكل عنصرا بنويا ثابتا في تحديد ماهية الهوية، قد نجد في مجتمعات أخرى أنّ مسألة الهوية لا تطرح في علاقاتها مع اللغة.

فالمسألة في الثقافة الجزائرية عامة، وفي كتاباتها الأدبية خاصة لا زالت تطرح إشكالا كبيرا باعتبار أنّ هذه الكتابات الأدبية والتي تبني أصحابها في بعضها اللغة العربية وفي بعض الآخر اللغة الفرنسية شكلت امتدادا طبيعيا لصراع فكري وثقافي وإيديولوجي منذ استقلال الجزائر والتي راهن أثناءها أصحاب القرار على أنّ مسألة الاستقلال لابد وأن تتعدى الطرح السياسي لتشمل الطرح الثقافي واللغوي، على هذا الأساس ظلّ الحديث في الثقافة الجزائرية حول الهوية مرتبطا ارتباطا عضويا باللغة العربية.

المراجع:

- 1- بن عيسى سليمان يومية وهران، Le quotidien d'Oran، 2002/10/24
- 2- الجابري محمد عابد المسألة الثقافية في الوطن العربي، قضايا الفكر العربي، مركز دراسات الوحدة العربي، الطبعة الثانية، 1999
- 3- خشاب الصادق، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان: التعريب وقواعد صناعة المصطلح في اللسان العربي - دراسة حول إشكالات صناعة المصطلح، جامعة سعد دحلب، البليدة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2009 - 2010
- 4- الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع: مؤلف جماعي، الجامعة التونسية، تونس 1978-
- 5- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة 3، 2002
- 6- المناصرة عز الدين الهويات والتعددية اللغوية، قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، عز الدين المناصرة، عمان، الصايل للنشر والتوزيع، 2013